

جذور الاستعمار الصهيوني بفلسطين :

أحمد أبو جزر

دكتور في جامعة سطيف 2 سابقا

ملخص :

الصهيونية لفظة مشتقة من صهيون ، اسم رابية في أورشليم (القدس) كان قد أقام عليها اليبوسيون أبناء عمومة الكنعانيين العرب حصنا قبل ظهور بني إسرائيل (قوم موسى) بحوالي ألفي عام ، و لذا فاللفظة كنعانية عربية و ليس عبرية صهيونية .

الصهيونية مختصة فلسطين ماهي إلا نتاج طبيعي للإمبريالية الغربية، وكانت بريطانيا أكثر هذه الدول الامبريالية احتضانا لها تمهيدا لاستثمارها.

استفادت الحركة الصهيونية من مؤتمر لندن الاستعماري 1905، و الاتفاقيات السرية أثناء الحرب العالمية الأولى كاتفاقية سايكس-بيكو، و وعد بلفور 1917، و الانتداب البريطاني 1920، ومشروع التقسيم الأممي 1947، و أخيرا حرب 1948.

الكلمات المفتاحية : الصهيونية - الاستعمار - وعد بلفور - الانتداب البريطاني - مشروع التقسيم الأممي

مقدمة : تتمثل القضية الفلسطينية اليوم بالاستعمار الصهيوني لفلسطين عام 1948، وإنشاء دولة لليهود فيها سميت بإسرائيل، و للإلمام بجذور هذا الاستعمار يجدر بنا تحديد تاريخ نشأة الصهيونية و أعلامها و مفهوما و أهدافها و جهودها، و المؤامرات التي نسحتها مع الاستعمار و الامبريالية حتى تمكنت من فرض هيمنتها على الأرض الفلسطينية.

كان اليهود يقاسون أشنع أنواع الاضطهاد من قبل أغلبية شعوب أوروبا ، و اشتدت وطأة هذه الاضطهادات طيلة القرون الوسطى ، و ما نضام الأحياء اليهودية إلا دليل مادي على حقيقة أساسية تحكمت بحياة اليهود في الفترة التي سبقت الثورة الفرنسية التي سوت حقوقهم المدنية بحقوق غيرهم من المواطنين الفرنسيين .

سادت صفوف اليهود ثلاث نظريات⁵⁴ طيلة القرن التاسع العاشر تلتخص فيما يلي:

1- نظرية التدين و انتظار (المخلص) و هي تقول بأنه لا خلاص لليهود من مشاكلهم و ما يقاسونه من اضطهاد إلا بظهور المخلص، أو المسيح المنتظر الذي سيخلص اليهود من عذابهم ، ويقودهم ليعيشوا بسلام في (ارض الميعاد).

2- نظرية الذوبان في المجتمعات التي يعيشون فيها، بانصهار المجموعات اليهودية و ذوبانها في المجموعات الأوربية التي يعيشون بين ظهرانيها ، أطلقت عليها نظرية التنوير.

3- نظرية الهروب من المشاكل و الاضطهادات بالهجرة إلى أقطار أوربية أخرى لا تضطهد اليهود : إلى الولايات المتحدة ، وأمريكا اللاتينية ... و إلى فلسطين.

وقد خير أغلب اليهود و بصورة خاصة يهود روسيا النظرية الثانية اعتقاداً منهم أن الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها سوف يمكنهم من الخلاص من وطأة العذاب خاصة إذا هم عملوا على الانخراط في الأحزاب السياسية، وخاصة الشيوعية و الثورية منها للمساعدة في نفس النظم القائمة التي كانت تضطهدهم، لكن اغتيال القيصر الروسي (الاسكندر الثاني) أحدث موجة عارمة من الاضطهاد ضد اليهود باعتبارهم متآمرين على حياة القيصر، وعلى النظام القائم سميت حينذاك بالاضطهادات (الاسامية)، فغيرت مذبحه اليهود في روسيا عام 1981 أفكار الكثيرين من أتباع هذه النظرية⁵⁵.

⁵⁴ حسين التريكي ، هذه فلسطين ، الشركة التونسية للتوزيع ، 1973 ، ص 18.

⁵⁵ إسماعيل ياغي ، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، دار المريح للنشر ، الرياض ، 1983 ، ص 39.

نشأة الصهيونية و أهم أعلامها :

على إثر انتشار القوميات في أوروبا خلال القرن التاسع عشر أيقظ موسى مندلسون (1729-1786) الضمير اليهودي في أوروبا متأثراً بمؤلفات الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون القرطبي⁵⁶، حيث رأى أن حل المشكلة اليهودية يكون على أساس جمع شتات اليهود في الأرض المقدسة، وأيده في طرحه الحاخام يهوذا القالي (1798-1878) الذي عاش في البلقان وتأثر بالحرب اليونانية التحررية، فنشر كتيباً بعنوان (اسمعي يا إسرائيل) عام 1834 اقترح فيه إنشاء مستعمرات يهودية كأساس لخلاص اليهود من شتاتهم و اضطهادهم ، فقام أتباعه بإنشاء أول مستعمرة زراعية لليهود بفلسطين هي (بتاح تكفا) و التي تعني (باب الأمل)⁵⁷.

و طور دعوة الهجرة اليهودية و الاستيطان بفلسطين كحل للمشكلة اليهودية الحاخام زفي هيرش كاليشر الألباني الأصل (1795-1874) ، حيث نشر مؤلفه (السعي إلى صهيون) عام 1862 بالغ فيه بوصف حياة اليهود في أوروبا الشرقية، ودعا إلى إنهاء الاضطهاد الذي يعانيه هناك بالمجرة إلى فلسطين، و الاستيطان الدائم بها ، و نتيجة لجهوده قامت جماعة من أتباعه بشراء قطعة أرض بالقرب من مدينة يافا عام 1866 ، وأسست فيها مدرسة زراعية أسمتها مدرسة ميكافاه الزراعية.⁵⁸

كما أسهم في بناء الفكر الصهيوني الحديث موسى هيس الألماني المولد (1812-1875) الذي بدأ حياته متديناً ثم مال الى الاشتراكية ، و غدا في النهاية صهيونياً حيث

⁵⁶ حسين التريكي ، المرجع السابق ، ص 23.

⁵⁷ إسماعيل ياغي ، المرجع السابق ، ص 37.

⁵⁸ المرجع نفسه ، ص 38.

اعتبره ثيودور هرتزل منشئ الصهيونية ،إذ نشر كتابا بعنوان (روما و القدس) عام 1862 اقترح فيه حل المشكلة اليهودية على أساس توطين اليهود في فلسطين⁵⁹ .

وقد أضيفت لجنة جديدة في صرح الفكرة الصهيونية على يد ليون بنسكو (1821-1891) الطبيب الروسي الذي آمن في بداية حياته بحركة التنوير (المسكلاه) التي كانت تدعو اليهود إلى الاندماج ،ولكن أفكاره ما لبثت أن تغيرت إثر المذبحة التي تعرض لها اليهود بعد اغتيال القيصر في عام 1881 بسبب اتهامهم بالمشاركة في مؤامرة الاغتيال، فنشر كتابه (التحرر الذاتي) في 1882 الذي تعرض فيه لحياة البؤس والذل التي يعيشها يهود أوروبا الشرقية بصفة خاصة ،و توصل في النهاية إلى حل المشكلة اليهودية عن طريق تحرر اليهود ذاتيا،والسماح لهم بالهجرة إلى وطن يمارسون فيه السيادة على أنفسهم⁶⁰ ، وقد أصبح كتابه السالف الذكر بمثابة الكتاب المقدس لكثير من اليهود الذين أخذوا يؤلفون الجمعيات من أجل شراء الأراضي في فلسطين لإقامة المستعمرات اليهودية عليها. و إن أهم أعمال بنسكو على الإطلاق هي جهوده في توحيد الجمعيات اليهودية في حركة واحدة سميت (أحباء صهيون) عام 1887 التي حصلت على اعتراف رسمي من روسيا مهمتها دعم الزراعيين و الحرفيين اليهود في فلسطين و سوريا⁶¹ .

فتحت حركة أحباء صهيون الطريق أمام ثيودور هرتزل (1860-1904) الطريق لإنشاء الحركة الصهيونية العالمية ، فبالرغم من أنه كان مندجا كل الاندماج في المجتمع الأوربي (المجري) فقد تأثر بمحاكمة الكابتن اليهودي الفرنسي (دريفوس) أمام محكمة

⁵⁹ نفسه، ص 39 .

⁶⁰ إسماعيل ياغي ، المرجع السابق ، ص 40

⁶¹ المرجع نفسه ، ص 41.

فرنسية لإفشاء أسرار الجيش الفرنسي نتيجة الحملات الصحفية الدعائية لكل التشكيلات الصهيونية ضد هذه المحاكمة، حيث شهدها كمراسل لصحيفة نمساوية⁶². وفي هذا الجو المشحون بالعداء للصهيونية و الدفاع عنها ولدت شخصية هرتزل الصهيونية، فنشر كتابه (الدولة اليهودية) سنة 1896 دعا فيه إلى إقامة دولة يهودية ذات سيادة، ولم يحدد المكان، وإن لم يكن يخفي تفضيله لفلسطين. ومن أجل إقامة هذه الدولة دعا إلى عقد مؤتمر صهيوني عالمي، وعقد بالفعل في مدينة بازل بسويسرا من 29-31 أوت 1897، و خرج بقرارات أهمها:

- 1- تشجيع الاستعمار الصهيوني في فلسطين.
- 2- إنشاء منظمة تربط يهود العالم.
- 3- تقوية و تعزيز الشعور القومي لدى اليهود.
- 4- اتخاذ خطوات تمهيدية من أجل الحصول على موافقة حكومية دولية لتحقيق أهداف الصهيونية⁶³.

مفهوم الصهيونية :

الصهيونية لفظة مشتقة من صهيون اسم رابية في أورشليم كان قد أقام عليها اليوسيون أبناء عمومة الكنعانيين العرب حصنا قبل ظهور بني إسرائيل (قوم موسى) بحوالي ألفي عام، ولذا فاللفظة كنعانية عربية وليست عبرية صهيونية⁶⁴. والصهيونية في معناها السياسي العصري هي الفلسفة القومية لليهود، إذ يقول هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية في هذا الصدد : " إن الصهيونية هي حركة الشعب اليهودي

⁶² حسين التريكي ، المرجع السابق ، ص 24.

⁶³ إسماعيل ياغي ، المرجع السابق ، ص 45، 46.

⁶⁴ أحمد سوسة ، العرب و اليهود في التاريخ ، العربي للطباعة و النشر و التوزيع ، ط 06 ، دمشق 1986 ، ص 619 .

في طريقه إلى فلسطين، وإن العودة إلى فلسطين يجب أن تسبقها عودة الشعب اليهودي إلى يهوديته.⁶⁵

وقد تميزت الحركة الصهيونية عن غيرها من الحركات الاستعمارية بأنها لم تكن مجرد أداة امتداد للدولة الإمبريالية الأم (كبريطانيا مثلا) بل حركة استعمارية في حد ذاتها موالية للإمبريالية العالمية، ففي الوقت الذي كان فيه المستوطنون الأوروبيون يتعايشون مع السكان الأصليين، كان هدف الصهيونية إجلاء عرب فلسطين لإقامة دولة صهيونية صرفة

أهداف الصهيونية :

الحركة الصهيونية هي مخطط استعماري صرف، ذو صبغة سياسية، قام على إدعاء باطل⁶⁶ ، وهي أيضا حركة سياسية دينية قائمة على أسس ثلاث: التوراة والتلمود والمقررات السرية لحكماء صهيون في المؤتمر الصهيوني الأول ببال 1897، وهي تهدف إلى حمل اليهود والمحافظة على معتقداتهم وتقاليدهم، ورفض كل اندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها، وفي هذا يقول دايفيد بن جوريون أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل : " إن الصهيونية ليست مجرد نظرية شاملة أو مفهوم فلسفي أو ديني مستقل عن الزمان والمكان والظروف، ولكن الصهيونية في الواقع هي فلسفة يهودية جوهرها نضال ضد الاندماج " .⁶⁷ وتهدف أيضا إلى حمل اليهود على العودة إلى فلسطين وإقامة دولة خالصة لهم على أرضها .

⁶⁵ حسين التريكي ، هذه فلسطين ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1973 ، ص 18 .

⁶⁶ أحمد سوسة ، المرجع السابق ، ص 621 .

⁶⁷ حسين التريكي ، المرجع السابق ، ص 18 .

وأما الهدف السري بعيد المدى فهو السيطرة على العالم أجمع، وفرض الديانة اليهودية عليه⁶⁸ ، على عكس الهدف الظاهري المعلن عنه وهو تخليص اليهود من التشتت والضياع ورفع الظلم والاضطهاد عنهم ، بعد فشل الأفكار الليبرالية التي نادى بها الثورة الفرنسية، وهي فرض مبادئ الحرية والمساواة والإخاء في المجتمعات الأوروبية ، وعجز الحركة الاندماجية اليهودية في القضاء على تميز اليهود عن غيرهم وبالتالي القضاء على محاولات اضطهادهم على يد اللاساميين⁶⁹ .

الصهيونية والاستعمار وجهان لعملة واحدة :

الصهيونية حركة استعمارية شبيهة كل الشبه بالتيارات الاستعمارية التي عرفتھا البلدان الرأسمالية في الثلث الأخير من القرن 19 وبداية القرن 20.

فقد نشأت الصهيونية في نفس الظرفية التاريخية التي تطور فيها الاستعمار الأوروبي، وتوخت نفس الأهداف والطرق التي توخاها، واعتمدت على القوى الامبريالية لتحقيق غايتها، نشأت المنظمة الصهيونية العالمية في ظرفية تاريخية تميزت بسياسة التوسع الامبريالي التي سلكتها البلدان الرأسمالية الأوروبية بحثا عن أسواق لمصنوعاتها المتراكمة، وعن مجالات لاستثمار أموالها الفائضة ، وذلك لحل الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تتخبط فيها آنذاك⁷⁰ .

ولقد وضع ثيودور هارتزل فكرة الدولة اليهودية في نفس هذا الإطار ، وذلك بدمج الحركة الصهيونية في حركة التوسع الامبريالي ، وهو يعتقد أن المسألة اليهودية ليست

⁶⁸ عبد الحميد بن أبي زيان بن شهنو ، أصول الصهيونية و مآلها ، المكتبة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1974 ، ص 98 .

⁶⁹ عبد الله التل ، خطر اليهودية العالمية على الإسلام و المسيحية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1989 ، ص 173 .

⁷⁰ علي المحجوبي ، جذور الاستعمار الصهيوني بفلسطين ، دار سراس للنشر ، ط 02 ، 1990 ، ص 51-52 .

مسألة اجتماعية أو دينية بل مسألة قومية، لا يمكن حلها إلا عن طريق تحويلها إلى قضية سياسية عالمية تتم تسويتها على يد الدول الكبرى مجتمعة ، ويضيف أن ذلك يعني أن تمنح هذه الدول اليهود السيادة فوق رقعة من الأرض كافية لتلبية متطلبات إقامة دولة يهودية⁷¹ .

وهكذا فإن الحركة الصهيونية ما هي إلا نتاج طبيعي للامبريالية الغربية ، وكانت بريطانيا أكثر هذه الدول الامبريالية احتضاناً لها تمديدا لاستثمارها ..
وعد نابليون :

لم تكن الامبريالية البريطانية هي صاحبة التطلعات الوحيدة في مضمار استثمار (الحركة الصهيونية) ، بل سبقتها إلى ذلك فرنسا حين أصدر نابليون بونابرت ندا⁷² إلى جميع اليهود في العالم يستحثهم فيه على الانضمام تحت لواءه ، والانضواء تحت رايته لإعادة بناء (مجد إسرائيل الضائع في القدس) ويصفهم بأنهم الورثة الشرعيون لفلسطين. لقد أعطى نابليون وعده عام 1799 أثناء حصاره لمدينة عكا، بعد الاجتماع السري الذي عقده مع الشخصيات اليهودية الفرنسية بفرنسا، وتمت في هذا الاجتماع مساومة

⁷¹ علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 51،52.

⁷² وعد نابليون : " إن العناية الالهية أرسلتني إلى هنا على رأس جيشي هذا ، و قد جعلت هذه العناية الالهية نشر العدل و تحقيقه مطلباً ، و تكلفت بظفري المستمر ، و جعلت من القدس مقرى العام ، و بعد قليل سوف أجعله في دمشق و سوف أكون جارا لبلد داوود .

يا ورثة فلسطين الشرعيين !!! إن الأمة العظيمة التي تنجب الرجال تناديكم الآن : لا للعمل على إعادة إحتلال وطنكم فحسب ، و لا لاسترجاع ما أخذ منكم ، بل لأجل ضمان موازنة هذه الأمة ، لتحفظوها مصنونة من جميع الطامعين بكم ، و لكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين .

المغضوا و برهنوا على أن القوة الساحقة التي كانت من لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئا ، و لم تبط همة أبناء الأبطال أجدادكم الذين كانت محالفتهم تشرف أباطرة روما" (المصدر : فضيل إبراهيمي ، جريدة الأنوار الجزائرية ، ع 06 ، 12-18 جوان 1993 ، ص 12-13) .

مكتشوفة بين نابليون واليهود : يصرف اليهود على نابليون وحروبه على أن يقتسم الطرفان الغنائم : لنابليون السلطة والمجد، ولليهود العائد المادي وإقامة دولة إسرائيل⁷³ . وقد تم الاجتماع السري التساوي إثر تلقي (باراس) عضو حكومة الإدارة الفرنسية رسالة من اليهودي الإيرلندي البارز (توماس كوربت) ينصح فيها الفرنسيين باستعمار الشرق وخلق وطن قومي لليهود في فلسطين يكون ركيزة لفرنسا .

ومما جاء في الرسالة : " إن اليهود سوف يكونون لكم عنصرا استعماريًا ثابت الأركان ، يحل في آسيا محل الإمبراطورية الآخذة في الانحلال (يقصد الخلافة العثمانية) ، و سوف يقدم لكم العنصر اليهودي أهم الضمانات لبث الفوضى وهدم الدين و إشعال الأزمات ، و سوف يلين هذا العنصر التركي الصلد والمتعصب نتيجة الاحتكاك و الاختلاط باليهود القادمين من مختلف البلدان حاملين مختلف الثقافات و النظريات ، بل إنني أعتقد أن الصين ذاتها ستأثر باليهود⁷⁴ .

بريطانيا و الحركة الصهيونية :

و بعد فشل نابليون في تحقيق مشاريعه الاستعمارية في الشرق ، أخذت بريطانيا تحاول تحقيق نفس الأهداف التي كان نابليون يسعى لتحقيقها ، و هي استغلال التمهيدات الصهيونية لاستعمار فلسطين على يد اليهود لصالحها .

فوجدت في المبشرين بالفكرة الصهيونية من رعاياها من اليهود أمثال الثري موسى مونتيفوري أداة طيعة تستغلها في تحقيق مشروعها الاستعماري .

⁷³ فضيل إبراهيمي ، "وعد نابليون سبق وعد بلفور ب 118 سنة !، جريدة الأنوار الجزائرية ، ع 06 ، من 12-18 جوان 1993 ، ص 12-13.

⁷⁴ فضيل إبراهيمي ، المصدر السابق ، نفس الصفحة.

فلسطين في خطط الاستعمار الأوربي :

إن نظرية تكون الحضارات قد أخذت تقلق بال زعماء الاستعمار الأوربي الحديث ، مسترشدين بما وقع للحضارات القديمة عبر التاريخ .

و قد أخذ ابن خلدون بالنظرية ذاتها حيث قال : " إن لدى الدول و الأمم أعمار طبيعية كما للإنسان ، فبعد أن تأخذ الأمم بالدعة و الراحة ، و تنغمس بالملذات و الشهوات ، و تميل إلى الرخاء و الترف تأخذ بيمادئ العطب ، و تتضعض أحوالها ، و تنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن تقضي عليها " .⁷⁸

و تحسسا بالخطر المحدق بالحضارة الأوربية القائمة على الاستعمار ، عقد مؤتمر بلندن عام 1905 سرا ، و استمر حتى عام 1907 بدعوة من رئيس وزراء بريطانيا السيد (كامبل بنرمان) بغية تشكيل جبهة استعمارية موحدة من الدول ذات المصالح المتوافقة آنذاك ، و هي بريطانيا و فرنسا و بلجيكا و هولندا و البرتغال و اسبانيا ، لإيقاف المد الاستعماري الألماني من جهة ، و التعاون الودي بينها لضمان استمرار نمو المصالح الاستعمارية المشتركة التي كانت تتمتع بها تلك الدول .

و بعد مضي أكثر من سنة على دراسة خبراء الاستعمار للإمبراطوريات السابقة ، قدم المؤتمر نتائج ما توصل إليه على شكل تقرير سري خاص إلى وزارة الخارجية البريطانية ، و نظرا لخطورته أحواله على وزارة المستعمرات ، ثم اختفى التقرير حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، حين نشره صحفي بريطاني صهيوني في معرض الدفاع عن الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، استشهادا بآراء و قرارات الحكومة البريطانية و سادة الاستعمار العالمي على ذلك⁷⁹ .

⁷⁸ أحمد سوسة ، المرجع السابق ، ص 629 .

⁷⁹ المرجع نفسه ، ص 632 .

تنفيذ الخطط الاستعمارية أثناء الحرب العالمية الأولى :

دلت الحوادث التي وقعت بعد التقرير السري الذي عرف (بوثيقة برنمان) دلالة واضحة على أن خبراء السياسة البريطانية ، و معهم خبراء الدول ذات المصالح المشتركة أخذوا يخططون بدقة متناهية لتنفيذ و تحقيق التوصيات الواردة به .

و أهم ما جاء في هذه الوثيقة : "إن إقامة حاجز بشري غريب على الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، و يربطهما معا بالبحر المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة على مقربة من قناة السويس قوة معادية لشعب المنطقة، و صديقة للدول الأوروبية و مصالحها هو التنفيذ العملي الوحيد للوسائل و السبل المقترحة " ⁸⁰.

و قد سنحت الفرصة للدول الاستعمارية في تحقيق مقترحاتها في الوثيقة أثناء الحرب العالمية الأولى - التي ثار فيها العرب إلى جانب الحلفاء ضد تركيا (لخلافة الإسلامية) ، فلم يجنوا سوى السراب - فمزقت بلاد الشام و العراق في اتفاقية (ساكس بيكو) في ماي 1916 ، و أهدت فلسطين للصهيونية العالمية في وعد بلفور في نوفمبر 1917⁸¹.

إن التاريخ يثبت أن السلطان عبد الحميد قد تصدى للمشروع الصهيوني ، فلم ينصع لإغراءات اليهود و اتصالاتهم العديدة ، فد كانوا يعرضون عليه المساعدة في إنشاء أسطول عثماني بحري ، و إنشاء جامعة عثمانية في بيت المقدس تغني عن الذهاب إلى أوروبا، و المساعدة في المشروعات العمرانية، و أن يعقدوا له قرضا ماليا يكفي لتنفيذ المشروعات المقررة، و أن يسددوا ديون الدولة العثمانية و كانت كبيرة و ثقيلة، و أن يدفعوا إتاوة سنوية تساعد الدولة على إصلاح اقتصادها المنهار، و أن يكونوا لها عوناً في الدول

⁸⁰ صالح مسعود أبو بصير ، جهاد شعب فلسطين في نصف قرن ، دار الفتح للطباعة و النشر ، ط 02 ، بيروت 1969 ، ص

الغربية مقابل أن يجد اليهود أرضاً يسكنوها ، و يتجمعون فيها تحت رعاية الدولة العثمانية .

وعلى الرغم من هذه الحيل كان رد عبد الحميد عام 1901 - قبل انتصار الاتحاديين عليه بسبع سنوات - من القوة و الصد ، بحيث سجله زعيم الصهيونية (هرتزل) في مذكراته على لسان السلطان فقال : " أنصح الدكتور هرتزل ألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع ... فليحتفظ اليهود بملاينهم .. أما و أنا حي فإن عمل الموضع في بلدي لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتي " .⁸²

غير أن موقف السلطات التركية المتواطئة مع الصهيونية بعد استلام جمعية الاتحاد والترقي الحكم هو الذي دفع العرب إلى الثورة ضد الدولة العثمانية ، و طلب التحرير و الاستقلال عنها ، فجرت مراسلات بين الشريف حسين (أمير مكة) و هنري مكماهون (المندوب السامي البريطاني في مصر) ، و قد اشتملت على وعود بذلك من الحكومة البريطانية يتضمن استعدادها لأن تعترف باستقلال العرب ضمن التحوم التي اقترحتها الشريف مكة .⁸³

ثار العرب في سوريا و لبنان و العراق و فلسطين ، و انخرطوا في صفوف الجيش العربي بإعلان الحسين ثورته ضد الدولة العثمانية في جوان 1916 .

لقد استطاعت الحيلة البريطانية التي فاوضت الشريف حسين أن تجعل منه محاربا في صفها و صف حلفائها الفرنسيين و الروس ، و أن تدفعه ليقا تل هو و أبناؤه جنود الدولة الإسلامية الكبرى التي كان العرب يسعون للإصلاح فيها ، و لا يهدفون لتحطيمها .

⁸² 34-35

⁸³ محمد رفيع النشئة و آخرون ، المرجع السابق ، ص 148 .

خدع الشريف حسين بوعد الإنجليز ، إذ كان يحلم أن يساهمه في نصرهم سوف يقيم له دولة كبرى تحقق عليها الراية العربية من حدود تركيا إلى صحراء سيناء ، و من البحر المتوسط إلى إيران .⁸⁴

اتفاقية سايكس بيكو :

بينما كانت بريطانيا تفاوض الشريف حسين، تغريه وتمنيه طوال عام 1915 ، وتصدر له الرسائل من القاهرة حيث دار المعتمد البريطاني مكماهون، وبعد أن اطمأنت إلا أن ثورة العرب أصبحت حتمية، وبعد آخر خطاب أرسله مكماهون إلى الشريف حسين في 10 مارس 1916 يستجيب فيه لطلباته، جلست بريطانيا مع فرنسا للتفاوض في مستقبل البلاد العربية وأشرف على تلك المحادثات معتمد روسيا لتطبيق المبادئ المقررة بموجب المعاهدة الثلاثية⁸⁵ بينهم ، ووزعت بريطانيا وفرنسا البلاد العربية على الخرائط، ووقع عليها كل من (مارك سايكس) عضو البرلمان البريطاني والمندوب السامي لشؤون الشرق الأوسط، و (جورج بيكو) قنصل فرنسا السابق في بيروت، ومعتمدها السياسي، فسميت الاتفاقية باسميهما⁸⁶.

وعلى الرغم من أن اتفاقية سايكس بيكو كانت مؤامرة ضد الوحدة العربية، فإن القسم المتعلق منها بفلسطين كان موضع معارضة من قبل بريطانيا التي رأى لفيف من السياسيين والعسكريين بها تحييد فلسطين، ووضعها تحت إدارة دولية ربما عرض أمن قناة السويس للخطر ، إذ أثبت هجوم الأتراك على القناة في مطلع الحرب بشكل قاطع أن

⁸⁴ صالح مسعود أبو بصير ، المرجع السابق ، ص 54 .

⁸⁵ المعاهدة الثلاثية :هي معاهدة بطرس بوج ، و أما اتفاقية سايكس بيكو فهي الجزء التنفيذي منها ، عقدت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية خلال مارس 1916 ، و قسمت فيها أملاك الإمبراطورية العثمانية ، و أهم مبادئها : أولا- منح روسيا الولايات التركية الشمالية والشرقية ثانيا- منح بريطانيا وفرنسا الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية 3- تدويل الأماكن المقدسة في فلسطين و تأمين حرية الحج إليها .

⁸⁶ صالح مسعود أبو بصير ، المرجع السابق ، ص 55 .

خط الدفاع الأول على ذلك المر الحيوي هو فلسطين لا صحراء سيناء، ولقي أيضا معارضة من قبل الحركة الصهيونية التي رأت في الحرب ، واحتمال تفكك الإمبراطورية العثمانية فرصة تاريخية للحصول على فلسطين . بموجب اتفاقيات دولية، وعن طريق الرعاية الاستعمارية الغربية .⁸⁷

وعد بلفور :

أدى اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى إحداث الارتباك والفوضى في الجهاز الإداري الصهيوني بعد انقطاع ما كان يصل بينه وبين الأجهزة المركزية في تركيا وروسيا ودول الغرب، كما أدى إلى نفي عدد من الصهاينة العاملين به، وإلى إغلاق بنك (أنجلو- فلسطين) وتوقف المؤسسات الصهيونية عن العمل، ولذلك تشكلت لجنة سياسية صهيونية في جانفي 1916 تألفت من وايزمن وجوزيف كوون وموريس غاستر وهربرت بنتوتيش كممثلين عن الاتحاد الصهيوني الإنجليزي، وانضم إليهما اثنان من الصهاينة القياديين في القارة الأوربية هما سوكولوف وتشيليلوف ، وعملت اللجنة بالتشاور مع أفراد عائلة روتشيلد على استئناف العمل الرسمي والشرعي للحصول على مبنغى الصهيونية، وهو وثيقة تخول لهم تأسيس وطن قومي بفلسطين .⁸⁸

لم تستثن اللجنة الصهيونية أي بلد في بذل جهودها لديه من أجل تحقيق الهدف الصهيوني، فقابل (وايزمن) السياسي البريطاني المعروف (بلفور) وزير الخارجية البريطاني للمرة الثانية بعد مرور 08 سنوات على المقابلة الأولى له، ولعبت الصدفة أن يتعرف وايزمن على (سيريل سكويك) صاحب جريدة (المانشستر غاردين) النافذة الذي عرفه بدوره على كل من (هربرت صامويل) الشخصية السياسية اليهودية

⁸⁷ عبد الوهاب الكيالي ، المرجع السابق ، ص 93 .

⁸⁸ أحمد طربين ، فلسطين في خطط الصهيونية و الاستعمار ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، دمشق

1970 ، ص 112 .

البريطانية البارزة التي أصبحت فيما أول مندوب سامي بريطاني على فلسطين، وعلى (لويد جورج) النائب البريطاني الذي أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء ⁸⁹ .
كان صامويل مؤيدا للصهيونية أصلا، إذ كتب مذكرة إلى (سكوت) رئيس الوزراء البريطاني حول موضوع إنشاء دولة يهودية في فلسطين، ولكن جهود الصهاينة أخفقت مع (سكوت) ، لأنه كان يلتزم بسياسة إحلال العرب محل الأتراك كأصدقاء لبريطانيا في الشرق الأدنى ⁹⁰ .

فسارع وايزمن والصهاينة إلى الاستعانة بصحفي انجليزي مرموق في جريدة المانشستر يدعى (سايد بوثام) للقيام بحملة واسعة تستهدف اكتساب اليهود وغير اليهود إلى الأفكار الصهيونية ، وقد ساعد سايد بوثام في تأسيس وتنظيم (لجنة فلسطين البريطانية) التي لعبت دورا هاما في اجتذاب الرأي العام لصالح الصهيونية .

وإثر تولي لويد جورج ، وآرثر بلفور في أكتوبر 1916 تباعا مهام الوزارة الأولى، ووزارة الخارجية ، انتهز وايزمن الفرصة، وبعث بمذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية تحت عنوان (برنامج لإدارة جديدة في فلسطين حسب الأمان الصهيونية) وطالب فيها بريطانيا بالاعتراف بيهود فلسطين كوحدة قومية، واعتبار العبرية لغة قومية لهم، ومنحهم الاستقلال الذاتي بالشؤون التعليمية والدينية والاجتماعية والضرائب المحلية، كما طالب بالترخيص لشركة يهودية باستعمار فلسطين وجلب اليهود ، ومنحهم الأولوية في اقتناء الأراضي ⁹¹ .

وعلى الرغم من النشاط الصهيوني وجاذبية الفكرة الصهيونية للسياسيين الاستعماريين البريطانيين ، فإن الاعتبارات الصهيونية لم تطغ على اعتبارات التحالف مع

⁸⁹ أحمد طرين ، المرجع السابق ، ص 109 - 111 .

⁹⁰ المرجع نفسه .

⁹¹ علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 49 .

العرب حتى منتصف عام 1916، أي بعد توقيع معاهدة سايكس بيكو، وتدهور الوضع العسكري للحلفاء في أوروبا، حيث اشتدت حاجتهم لدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانبهم.⁹²

وهنا لعب الصهانية ورقة نفوذهم في الولايات المتحدة الأمريكية ببراعة ودهاء فقام رجل بريطاني من أصل أرمني اسمه (جيمس مالكوم) بلفت أنظار الانجليز إلى أهمية التحالف مع الحركة الصهيونية من أجل دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانبهم، فعمدت سلسلة من الاجتماعات بين الزعماء الصهيونيين والمسؤولين البريطانيين في بيت وايزمن انتهت بالاتفاق على الاتصال سرا بالقاضي (برانديس) زعيم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي كان له نفوذ على الرئيس الأمريكي ويلسون، حيث أخبره بأن الحكومة البريطانية مستعدة لمساعدة اليهود في الحصول على فلسطين مقابل الدعم الصهيوني النشط لقضية الحلفاء في الولايات المتحدة الأمريكية.⁹³

استطاع القاضي برانديس أن يقنع الكولونيل (هاوس) مستشار الرئيس ويلسون بوجوب تغيير هذا الأخير من موقف بلاده في دخول الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء، ويتنكر لمبدأ من مبادئه (وهو عدم الاعتراف بأي بمعاهدة سرية)، وأبرق هاوس إلى الحكومة البريطانية في 15 أكتوبر 1917 يؤيد سياستها في فلسطين.⁹⁴

و هنا لابد من وقفة تأمل واستغراب مما خطه الدكتور وايزمن في مذكراته حيث قال : " ولما اجتمعت الوزارة البريطانية في 02 نوفمبر 1917 للمصادقة على وعد بلفور، وبقيت أنا خارج الوزارة انتظر النتيجة، كان أول من خرج من غرفة الوزارة

⁹² المرجع نفسه .

⁹³ عبد الوهاب الكيالي ، المرجع السابق ، ص 98 .

⁹⁴ حسين التريكي ، المرجع السابق ، ص 79 .

(الكولونيل هاوس) الذي تقدم نحوي باسماء وقال لي : دكتور وايزمن إن المولود صبي ! ويقصد هنا بذلك وعد بلفور " .⁹⁵

وأول ما يستغرب له القارئ هو وجود الكولونيل الأمريكي هاوس مستشار الرئيس ويلسون في الوزارة البريطانية عند صدور وعد بلفور، فهل كان وجوده نتيجة اقتناعه بما لقنه له رئيس الصهاينة برانديس ، أم نتيجة تأثره ببريق الذهب، أم بكليهما معا ؟! .⁹⁶

دخل الجنرال الانجليزي (اللبي) القدس في 07 ديسمبر 1917 وهو يمتطي وعد بلفور الذي أعطى لليهود حق إنشاء وطن قومي في فلسطين، واليهود يومئذ أقلية لم يزد عددهم عن 50 ألفا، بينما العرب كانوا اثني عشر ضعفا لعدد اليهود (حوالي 600 ألف نسمة) .⁹⁷

إن من يقرأ كتاب (ليونارد شتاين) الذي قضى سنوات طويلة في دراسة جذور وعد بلفور وأسبابه لا يخرج برأي ثابت وواضح عن السبب الذي دفع حكومة لويد جورج الائتلافية إلى تحويل وزير خارجيتها بلفور بتوجيه هذه الرسالة إلى اللورد روتشيلد⁹⁸ . ومهما كان السبب ، فإن للتخطيط الصهيوني البارع أكبر الأثر في النصر الدبلوماسي الذي أحرزه الصهاينة بقيادة وايزمن الذي أخبر مسؤولا بريطانيا رسميا بأنه قام بألفي مقابلة (2000) للوصول إلى تصريح بلفور .

غير أن نجاح الصهيونية لا يعزى إلى براعة وايزمن الدبلوماسية بقدر ما يعزى إلى إلتقاء مصالحها مع مصالح الأوساط الحكومية الاستعمارية، ذلك أن التصريح (وعد

⁹⁵ حسين التريكي ، المرجع السابق ، ص 80 .

⁹⁶ المرجع نفسه .

⁹⁷ نفسه .

⁹⁸ كريستوفر سايكس ، مفارق الطرق إلى إسرائيل ، تعريب خيرى حماد ، دار الكتاب العربي ، ط 01 ،

بيروت 1966 ، ص 23 .

بلفور) صدر في اليوم نفسه الذي بدأ فيه الجنرال اللنبي هجومه لاحتلال فلسطين، ووافق عليه الرئيس الأمريكي قبل نشره، وهكذا قام (لويس برانديس) قاضي المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية بالدور ذاته الذي قام به وايزمن في بريطانيا .⁹⁹

الانتداب البريطاني على فلسطين 1920 و إفرازاته :

واصلت بريطانيا مخططاتها الاستعماري الرهيب الذي كانت تعدّه للعالم العربي ، فبعد أن انتزعت الموافقة على وعد بلفور من الدول الكبرى و العالم الصليبي ، خشيت أن يكون هذا غير كاف ، فأوعزت لليهود بالتحرك لضمان أن يكون الانتداب على فلسطين من نصيبها .

مؤتمر سان ريمو و مقرراته :

اعتبر الحلفاء إعلان استقلال سوريا ، و تنصيب الأمير فيصل ملكا عليها في مارس 1920 تمردا و عصيانا ، فاجتمعوا على عجل في سان ريمو (إيطاليا) في أبريل 1920 و قرروا توزيع الانتداب على الشكل التالي :

- الانتداب الفرنسي على سوريا و لبنان .
- الانتداب الإنجليزي على العراق و فلسطين .
- تكليف بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور .
- تأييد الغزو الإيطالي لليبي .

لم تكشف الإدارة العسكرية النقاب رسميا عن مضمون تصريح بلفور أمام شعب فلسطين حتى شهر أبريل و بالتحديد بعد 03 أيام من تفويض بريطانيا بالانتداب على فلسطين ، و بلغت الإدارة مضمون قرارات مؤتمر سان ريمو لوجهاء نابلس ،

⁹⁹ كريستوفر سايكس ، المرجع السابق ، ص 23 .

فاجتاحت البلاد موجة من احتجاجات العرب الفلسطينيين ضد سياسة الانتداب ،
و ضد فصل فلسطين عن سوريا و ظهرت بوادر القلق و التمرد ¹⁰⁰ .

تعيين صهيوني بريطاني مندوبا ساميا على فلسطين :

قبل أن يتقرر مصير فلسطين في مؤتمر الصلح ، و قبل أن يحدد شكل من أشكال
المستقبل الذي ينتظر شعب هذه البقعة الضيقة من الأرض أعلن اللورد اللني بأنه قد وجه
الدعوة إلى اليهودي البريطاني هربرت صامويل ليساعده على تسوية شؤون
فلسطين . ¹⁰¹

وصل صامويل إلى فلسطين في 03 جوان 1920 ، فجاء تعيينه مندوبا ساميا ضربة
قوية للفلسطينيين ، إذ كتب الجنرال بولز - في أعقاب رحلة شاملة قام بها داخل
فلسطين خلال شهر ماي - : " إنهم (أي الفلسطينيين) مقتنعون بأنه سيكون متحيزا
للصهيونية ، و أنه يمثل حكومة يهودية لا بريطانية " . ¹⁰²

لقد شهد صامويل على نفسه بنفسه في مذكراته حيث قال : " لقد عينت مندوبا
ساميا لجلالته في فلسطين ، و حكومة جلالته على دراية تامة بعواطف الصهيونية .. بل
و لاشك أنني عينت في هذا المنصب بسبب هذه العواطف " . ¹⁰³

و يضيف وايزمن في مذكراته عن هذا الموضوع : " إن هربرت صامويل نتاج
يهوديتنا ، و نحن الذين عيناه مندوبا ساميا في فلسطين لينفذ مخططات الصهيونية " . ¹⁰⁴

¹⁰⁰ عبد الوهاب الكيالي ، المرجع السابق ، ص 155-156 .

¹⁰¹ صالح مسعود أبو يصير ، المرجع السابق ، ص 92 .

¹⁰² عبد الوهاب الكيالي ، المرجع السابق ، ص 158 .

¹⁰³ حسين التريكي ، المرجع السابق ، ص 120 .

¹⁰⁴ المرجع نفسه ، ص 121 .

أفبعد هاتين الشهادتين يحتاج المرء إلى ما يثبت التواطؤ البريطاني الصهيوني على فلسطين ؟ و على مستقبل العرب في منطقة الشرق الأوسط ؟ !

سارع صامويل بعد وصوله إلى استدعاء وجهاء القدس و ضواحيها ثم وجهاء حيفا ، و في كلا الاجتماعين قرأ رسالة ملك الإنجليز بمناسبة إصدار قرار الانتداب ، و ألقى خطابا وعد فيه بالحرية و المساواة لجميع الأديان ، و بإحداث تطوير إداري و اقتصادي ممتاز ، و إعلان العفو عن المساجين إثر ثورة القدس.¹⁰⁵

لقد سلك صامويل منذ تعيينه سياسة تهويد تتمثل في إسناد الوظائف الكبرى لليهود ، و فتح أبواب المناصب لليهود برغم قلة عددهم ، حتى أصبحت أربعة أضعاف مناصب العرب ، فعين نورمان بنتويتش نائبا عاما في حكومة الانتداب ، و حاييمسون مديرا لإدارة الهجرة .¹⁰⁶ و للضغط على الإنسان الفلسطيني منع صامويل تصدير الحبوب و الزيت ، و هما أساس ثروة البلاد ، لكي تتضخم الأسواق بهذه الحاصلات ، فتهدد الأسعار ، و يعجز الفلاح عن تأدية الضرائب و وفاء الديون فيضطر لبيع أرضه .. كما سن قوانين لحماية الصناعة اليهودية ، و تمكينها من السيطرة على أسواق فلسطين ، و من غزو أسواق البلاد العربية الخاضعة للنفوذ البريطاني .¹⁰⁷

و سمح صامويل في 21 أوت سنة 1920 بدخول 16500 مهاجر يهودي خلال سنة واحدة ، و قدم أكثر من 100 ألف دونم من أراضي الدولة التي يستغلها العرب إلى المؤسسات الصهيونية ، و نقل بمقتضى تشريعات جديدة ملكية أراضي 22 قرية من الحولة و مرج ابن عامر إلى الدولة ، ثم منحها لليهود ، و طرد سكانها العرب البالغ عددهم 25 ألفا و حجز أراضي و مواشي العرب الذين عجزوا عن تسديد

¹⁰⁵ عبد الوهاب الكيالي ، المرجع السابق ، ص 160 .

¹⁰⁶ صالح مسعود أبو يصير ، المرجع السابق ، ص 97 .

¹⁰⁷ علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 41 .

قروضهم¹⁰⁸. كما منح بعض الشركات اليهودية امتيازات استثمارية مثل امتياز كهرباء فلسطين، و امتياز معادن البحر الميت ، و أصدر أمرا في أبريل 1921 بتسليم أرض الغور للصهيونيين ، و كان هذا الغور مسجلا باسم السلطان عبد الحميد أثناء العهد العثماني يفلحه العرب منذ مئات السنين ، فأدى ذلك إلى طرد الآلاف من الفلاحين العرب¹⁰⁹

الخاتمة :

لقد تعرض الشعب الفلسطيني الصغير العدد المسالم لمؤامرة يعجز عن وصفها الخيال ، إنها مؤامرة من طرف الإستعمار و الصهيونية ممزوجة بتخاذل بعض الأنظمة العربية . فمن وعد نابليون 1799 ، إلى وثيقة كامبل بنرمان 1907 ، إلى وعد بلفور 1917 ، حتى الانتداب البريطاني 1920 الذي لعب دورا خطيرا في تحويل فلسطين العربية إلى دولة صهيونية ، بعد إجهاضه للثورة الكبرى 1936-1939، ثم الدّعم الأمريكي اللامحدود للصهاينة إثر الحرب العالمية الثانية ، و قد ظهر جليا بمشروع التقسيم الأممي في 29 نوفمبر 1947 الذي جندت له الولايات المتحدة الأمريكية كل إمكانياتها المادية و المعنوية¹¹⁰.

استطاع الشعب الفلسطيني أن يدافع عن وطنه ، و يقاتل في سبيله ، و يحتفظ بأكبر أجزائه إلى أن دخلت الجيوش العربية في ماي 1948 ، إذ لم تكن القوات الصهيونية في منتصف ماي تحتل إلا جزءا ساحليا ممتدا من غرب يافا إلى شرق حيفا ، و جزءا آخر يحاذي بحيرة طبرية عند حدود سوريا ، أي حوالي 03 ملايين دوغما من أصل 27 مليون دوغما¹¹¹ ، ثم حدث ما حدث ...

¹⁰⁸ محمد رفيق التنتشة و آخرون ، المرجع السابق ، ص 161 .

¹⁰⁹ صالح مسعود أبو يصير ، المرجع السابق ، ص 106 .

¹¹⁰ حسين التريكي ، المرجع السابق ، ص 240-242 .

¹¹¹ صالح مسعود أبو يصير ، المرجع السابق ، ص 415 .

قائمة المراجع

1. حسين التريكي ، هذه فلسطين ، الشركة التونسية للتوزيع ، 1973 .
2. إسماعيل ياغي ، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1983 .
3. أحمد سوسة ، العرب و اليهود في التاريخ ، العربي للطباعة و النشر و التوزيع ، ط 06 ، دمشق 1986 .
4. عبد الحميد بن أبي زيان بن شهنو ، أصول الصهيونية و مآلها ، المكتبة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1974 .
5. عبد الله التل ، خطر اليهودية العالمية على الإسلام و المسيحية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر .
6. علي المحجوبي ، جذور الاستعمار الصهيوني بفلسطين ، دار سراس للنشر ، ط 02 ، تونس، 1990 .
7. فوزيل إبراهيمي ، "وعد نابليون سبق وعد بلفور ب 118 سنة !، جريدة الأنوار الجزائرية ، ع 06 ، من 12-18 جوان 1993 .
8. محمد رفيق النتشة و اسماعيل ياغي و عبد الفتاح حسن أبو عطية ، فلسطين تاريخاً و نضالاً، مكان الطبع (غير موجود) ، ط 02، الرياض.
9. عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، ط 02 ، بيروت 1973 .
10. صالح مسعود أبو يصير ، جهاد شعب فلسطين في نصف قرن ، دار الفتح للطباعة و النشر ، ط 02 ، بيروت 1969 .
11. أحمد طربين ، فلسطين في خطط الصهيونية و الاستعمار ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، دمشق 1970 .
12. كريستوفر سايكس ، مفارق الطرق إلى إسرائيل ، تعريب خيرى حماد ، دار الكتاب العربي ، ط 01 ، بيروت 1966 .